احتضار امرئ القيس[1]

عرض شعري درامي

للدكتور احمد زكي ابو شادي

الدهماء

الى الصديق عيسى خليل صبّاغ

يا منطقَ الموتى ! اليك هديةٌ ... من شاعر عملوا على إخراسهِ

عُدّت مواهبه جنايةَ عصره ... فتآمروا للحدّ من أنفاسهِ

وتفنّنوا في وأد كل كريعة ... ويتيمة وقفت على إحساسهِ

ونصبوه وطاردوه فهالهم ... ودموعه طفحت بثورة كلسهِ

وأتى الى الملتقى ، فما رحموا له ... فكراً ، ولا قلباً يدقّ بياسهِ

حتى هرستَ اليه تنقد وشلةٌ ... بقيت ، وترجعه إلى قرطاسهِ

وتُعنّف الزمن العشوم مهذّباً ... لقياسه ، بل ضارباً بقياسهِ

ومقدّراً غرر المآثر وحدها ... لا حاسداً يختال في أدناسهِ

وتخلّصاً مثلي — الذي يا طالما ... أسدى من الموتى ، ومن وسواسهِ

جُمعت عوارفه — وليس لمثله ... مهما اسيء — سوى الوفاء لناسهِ

---

(١) من القاهرة صدرت امريكا اخيرا وقام فيها بدور امرئ القيس الاستاذ عيسى خليل صباغ.

تمهيد

حين يفتخر العرب بتراثهم تتجلى أمامهم رؤى جميلة من ماضيهم العزيز في جميع العصور ، وبينها أدب امرىء القيس وسيرته في النخوة والثأر للأبوة والشرف . وانها لسيرة جديرة بأن تستظهر وتمثل في كل مناسبة ، كما يتمثل بشعر ذلك الملك الفذّ . كان امرؤ القيس بوهيميًّا فناناً ، وهب الشعر العربي كنوزاً من الجواهر النادرة التي جرت النقاد في لغات شتى ، فترجمت وشرحت وعززت ، وكانت استشهاداً وغناء وانه ليمثل التغاني في سبيل فنه الذي أحبه وهو (الشعر) ، وكرهاً لتعلقه به طرده أبوه الملك حجر . ولكنه لم يصرفه عنه ، إذ كان شاعراً مطبوعاً أصيلاً مبدعاً من الطراز الأعلى ، حتى اذا قتل والده وبلغه نبأه وهو يشرب لم يجزع بل قال في حزم الرجال : —

« ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر ، وغداً أمر » .

ويحدثنا التاريخ كما يحدثنا شعر امرىء القيس بالانتقام الرهيب الذي أنزله ببني أسد قاتلي والده وسالبي ملكه ، دون أن يعرضه اليأس أو الخوف أو قلة الأنصار ، عندما اتخذ قراره وإصراره ، فضرب المثل لكل جاد مهموم بقضية عليا يكرس جهوده لها . ولكنه لم يكتف بذلك ، بل ظل يسير في العرب يطلب النصر الآكل واستعادة ملكه ، حتى ذهبت به همته الى القسطنطينية لمحالفة الامبراطور جوستنيان Justinian والاستنجاد به على أهل الحيرة . ولكن ابنته أحبت امرأ القيس الذي اشتهر بالطف وجمال الطلعة . وكانت بينهما صلات غرامية ، فوشى به الى الامبراطور ، وفطن امرؤ القيس الى ذلك فأسرع بالعودة الى بلاده . وبعث الامبراطور في طلبه رسولاً أدركه دون (أنقرة) بيوم ، ومعه حلة ذهبية مسمومة وكتب إليه : « إني قد بعثت اليك بحلتي التي كنت ألبسها يوم الزينة ، ليعرف فضل منزلتك عندي ، فالبسها ، وصلت إليك فالبسها على اليمن والبركة ، واكتب الي من كل منزل تخبرك » . فلما وصلت إليه الحلة اشتد سروره بها ولبسها ، فسرى فيه السم وتنفط جلده ، والعرب تدعوه « ذا القروح » لذلك ؛ وفي هذا العرض الشعري التراجيدي الذي يمثل مأساة ذات ثلاثة مناظر تتجلى العواطف التي جاشت بامرىء القيس ابان احتضاره .

المنظر الاول

(في مقبرة بمدينة أنقرة بجهة منها لاحدى بنات ملوك الروم ، وقد رقد امرؤ القيس متفيئاً ظل الاشجار في صباح يوم من أيار سنة ٥٤٠ م ويدور بيني وبين غلام فروجه الحديث)

امرؤ القيس : أجارتنا ! إن المزارَ قريب ... وإني مقيمٌ ما أقام (صهيب)
أجارتنا ! إنا غريبان ها هنا ... وكل غريبٍ للغريب نسيب !

•

آه ... وآه ! .... وما موقفي ... بشكوى ، لكنها غصةٌ للأسد
يا قسوة الدنيا ويا غدرها ... لم تظلما مثليَ يوماً أحد !
أين يا (عمرو) أنت ؟
أين أنت يا رفيقي ؟
أمُستَوار علي تبكي ؟
أتذكر لما كنت تبكي محاولاً ... تكوصي ، فهل بالدهر قد كنت أخبرا
ولكنني لم أرض إلاّ توثبي ... دليلاً ، وجابهت الشدائد قسورا !

•

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه ... وأيقن أنّا لاحقان (بقيصرا)
فقلت له : لا تبك عينك ، إنما ... تحاول ملكاً أو نموتَ فنعذرا !

•

يا فروجي ! أما شبعت ؟ جسمي يتلظّى ، ولم يعد بعدُ غصّا
ساقطاً كالنشير من قطم النجم ، وقد ذابَ ساقط النجم ومضا
ليس لحماً ، ولا دماً ، بل ضياءً ، ورجاء طرحته اليوم أرضا
يا فروجي ! لا توحشي يا فروجي ! إن أعش كالغراب ضيّاً وخفضا
ليس روحي بل ليس جسمي من الدنيا ، ومنها وددتُ لو كنت أنفى

(يذهب من وجه اعواء ، بينما الطبيعة الحنونة تفيض بموسيقاها الوانية)

امرؤ القيس (يستعيد رشده في اضطراب) :

أُثيرُ هذه الأنغام ألحانَ ساحرٍ ... أوَ حانِ الأدهار بِرّاً بآمالي

وهل ذلك الطيرُ المغرّد شيعةً ... تشد إليه ، لحنها بعضُ إخوانِ ؟
أهذا شعوري أم هواجسُ بلبلٍ؟ ... وهذا صياحي أم هواجسُ بلبلِ؟

*

ولو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطلب ، قليلٌ من المالِ
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ ... وقد يدرك المجدَ المؤثّلَ أمثالي!

*

(صمت مقدسة الصفير مع بعض الموسيقى الهادئة)

عفا (اللاتُ) من طيرٍ أهبّ لشيدها ... ولو كان سحراً في لعجزي وإهمالي
ويا ما أحيلاها على أيّ حالةٍ ... وما حفلت يوماً بملكٍ وأوجالِ

*

كأنّ ذنوبَ الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البالي!

*

(وتشتد طبلة الالام ، ولكنه يتجلد ، ويناديها بروحه البطلة المثالية)

امرؤ القيس : ونادمت (قيصر) في ملكه ... فأوجبني وركبتُ البريدا
(متوجعاً) إذا ما ازدهتنا على سكةٍ ... سبقت الفرانق سبقاً بعيداً

*

وقد طوّفتُ في الآفاق حتى ... رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ!

*

فيا شمس (النهار) ألا سبيلٌ ... لما تدرين من ذاك الظلام
لكم حاربته حراً هواناً ... وكل يرّمنك ذا احتشام
فهل سيغرني إن غبتِ عني ... أنا النجمُ المضلّ الرغام ؟

*

أجيبيني ! أجيبيني ! فأني ... أعاني من قروحي ما أعاني
وإنّ شمتُ على الآلام نفسي ... وما تشمو خيا نفسُ المعاني
أعانيها وأكتمها كأني ... أمينٌ ، حافظٌ سرّ الزمانِ

*

ويا هذي الفرائح من شعاعٍ ... ويا هذي الرواقص من دوالٍ

ويا عذبي الأزاهرُ من بناتٍ منمّسة منوّعة الجمالِ
ويا عذبي النسائمُ باتجاتٍ طبعنَ ثغورهنّ على خيالي
أأنتِ الشفاء أتى حبيباً يُعزّيني، وقد سمع ابتهالي؟!

(يسمع نجاد الطبيعة المرح في الملاق شجية عادئة)

امرؤ القيس : إنّ النعاس يكاد يغلبني كأني من خمورهْ

(متناولا رقد يا طالما عاندته
غلبه النعاس) يا طالما عاندته

(موسيقى ناعمة هادئة)

المنظر الثاني

(يستوقظ امرؤ القيس في أصيل ذلك اليوم على آلامه المبرحة دون الانتفاع من نومه منذ الصباح، وقد بدأ يشعر بدنو منيته وتحولت رغبته الى يقين من غدر الامبراطور به)

امرؤ القيس :

أ غوى (النهار) ، وفاني من تحسه ذاك الصلاةْ على السماء تلالا ؟
وذاك عمري ... ما أرى (إصباحه) أضنى ، ومن وهج (الظهيرة) نالا
ثم (الأصيل) هوى الصباح ولم أنل مجداً تألق في السماء وطالا

*

اضحكي يا قروحي ولتعضّي أصابعي !
اضحكي من قروحي في غرور النسيم !
ضاع عمري هباء مثلما ضاع مُلكي
ما درى من أساء لو درى كان يبكي

*

وهج (الظهيرة) لم أره وكذاك مجدي لم أره
كل الذي حولي بما ت بادمٌ في مقبره
ما أحقر الدنيا لمن رفع الحياء من الشره !

*

آه آه يا قلبي الجحيم ! جحيم كل جسمي لا يخف
وحول الريم من المجالي مشارع لا تضن ولا تجف
وأين يدلنطق في ظبائي؟ وأين الغانيات له ترف؟

*

أيها الأشواق فوق العشب ! يا صفو الرحيق !
أنعشيني! أنا كالخمور خمر لا أفيق !
أسكرتني سورة الحمى فأضللت الطريق !

(فاصل موسيقي شجي)

امرؤ القيس : يا ليت شعري أسقمي من خدر (قيصر) يسقي ؟
أذاك سم دفين يحمه خفق قلبي ؟ !

*

ماذا؟ .... أحللتك التي أهديتها كانت ملوثة بسم ناهر ؟
يا بئس (قيصر) إن يكن إعجابه تدويخ مغترب وقتلة شاعر
إنا بنو الآفلاك ليس يحدنا وهم الزمان ولا الوجود العاثر
لبني الشرائع بالعوائف وحدها ونعاف أحكام القضاء الدائر !

*

يا حياتي ! آذن الليل بأطفاء سراجي
ها هي الشمس تحييني وقد حان زماني
ها هي الآلام قد خفت وإن كانت تداجي
ها هي الأرض بدت تبتل من نثر الدماع
قد بكت لي ، وبكاء الأرض أبي كابتهاجي
فأليها أنا ماض ، وتباريحي وداعي !

(يختم المنظر بلحن قلوب)

المنظر الثالث

(أشرف امرؤ القيس على الدور الاخير من احتضاره ؛ وقد لمس من أية حركة ، وقربت الشمس ، ولكن الافق توهج بأصباغ الشفق ، وبدا هو وحيداً لا تحف به غير طيوف الموتى ونبات المقبرة ونجوم السماء . وقد سمع ـ بعد فترة ـ الصحرة السابقة للموت) .

امرؤ القيس : من ترى ذلك الذي شطّ في النقش ونقّض الأصباغ فوق السماء
(في ضعف) هل دمائي هذي؟.... نعم.... بل دمائي أهرقت في قروحي المضاء!

*

ولكنّ الظلام أراه يمتدّ ... الليّ ، فهل تخوّف من ذهابي
تمهّل أيها الجاني ! تمهّل ! ... فلا تعجل سلاسل لا تحابي
وضعفي مرهمي ، وعثار قلبي ... كما هشّر الصغير على انتحاب !

(فاصل موسيقي شجي قصير)

(ويتوالى الاغماء على امرىء القيس من سريان السم في جسمه ومن تأثير الحمى ، فيستيقظ وقد اشتد الظلام ووضحت النجوم السماء)

امرؤ القيس : وأنت يا نجومُ فوافذ الغيوبْ
(في ضعف متزايد) ما سرك المكتوم ؟ أنكبة القلوب ؟
تبدين كالعيون لكاسر الغيلانْ
وخاطري المجنون يرنو لها سكران !
وأنتِ يا نجوم . . . . . .

(ثم يفقد امرؤ القيس وعيه ، فلا يستيقظ الا لحظة يلفظ فيها مع آخر أنفاسه مطلع معلقته الخالدة وكأنما يرثي نفسه به)

امرؤ القيس (في سكرة الموت) : « قفا . . نبك . . من ذكرى . . . حبيب . . . ومنزل ! »

النهاية

الدكتور أحمد زكي أبو شادي